وكنت في تلك الساعة المبكرة أعاني من التعابس ، وأشعر بالبرد، وتتوق نفسي الى فنجان من القهوة. ولكن في الساعة الثانية والنصف من بعد ظهر الثامن من تشرين الاول (اكتوبر) ، ناولني ضابط الامن الاسرائيلي جواز سفري بينما سيارة الباص تتحرك من موقع التفتيش على الجانب الاسرائيلي من جسر اللنبي . لقد « أبعدت » الى الضفة الشرقية . وفي الصباح التالي ، في عمان ، تلقيت تأكيدا لامر كان قد نقل لي شفهيا وهو انني غير مرغوب في وجودي في الاردن .

اما في مقر قوات الامن العام في عسقلان فقد تعرضت لتحقيق مطول وقد نمت نبرة المحقق بأنه ضابط عالي الرتبة في المخابرات الاسرائيلية . وقد قال وهو يغادر غرفة التحقيق أنه سيطلب سيارة لتنقلني عبر الجسر الى شرق الاردن . ولكن بعد انقضاء ساعتين ، أخذت الى مكتب آخر حيث كتب ضابط الشرطة شيئا باللغة العبرية على بطاقة ، وأبلغني أنني سأظل موقوفة في النظارة مدة يومين او ثلاثة لاجراء المزيد من التحقيق .

— « وما هي تهمتي ؟ » سألته . — « اتصالات مشبوهة مع ارهابيين » . — « وأين سأوقف ؟ » — « في زنزانة ، هنا » . لقد كان التحقيق طويلا ، مضجرا ، عقيما ، وبلا طائل . وكان اجمالا بمثابة تكرار للتحقيق الذي تعرضت له قبل عشرة ايام من ذلك التاريخ في مقر الامن العام الاردني في عمان .

وقد انتهت كلا جولتي التحقيق بذات التهمة الغامضة : « اتصالات مشبوهة مع ارهابيين » . لقد اعتبر المحققون في كلا الطرفين ان هناك ما يثير الشبهات في قيام صحفية مقيمة في مصر بزيارة الاردن و« اسرائيل » من حين الى آخر ... وأظهر كلا الطرفين المحققين تصميما على اثبات ان لي اتصالات مع « الارهابيين » وأيلول الاسود ونشاطات تتصل بالارهابيين . وكلا الطرفين حظرا علي حق الرجوع بسبب التهمة الملفقة عن اتصالاتي وارتباطاتي المزعومة مع العرب والفلسطينيين . وفي كلتا الحالتين لم تورد اسماء احد من هؤلاء « الارهابيين » الذين زعموا انني أتصل بهم ، كما لم يجر التحقيق معي حول نشاطات او اتصالات معينة او محددة أجريتها خلال زياراتي . ولم تظهر المخابرات الاردنية أي اهتمام، ولو من ناحية شكلية ولذر الرماد في العيون ، بتحري امكانية وجود اتصالات لي مع اسرائيليين او اية « علاقات مشبوهة » مع عدو الاردن !!! . لقد بدا لي ان مخاوف الاردن وهواجسها لا تعدو كونها امتدادا لمخاوف اسرائيل وهواجسها ... ولقد بدا لي ان التحقيق لدى كلا الطرفين متفاهم عليه في عملية تنسيق مشتركة .

ولم أندهش كثيرا عندما قال لي ضابط الامن العام الاسرائيلي انه حالما نفرغ من التحقيق معك «سوف نتصل بالاردنيين لنرى ان كانوا يسمحون لك بالرجوع عبر جسر اللنبي » !! وعندئذ تمتمت في نفسي ، لا غرابة ان يعج العالم العربي بمهمات واشاعات عن وجود تواطؤ بين اسرائيل وأنظمة عربية معينة ، وعن وجود خيانات وصفقات بيع بالجملة الخ ... وقد بدا لي ان الاسرائيليين منطقيون وصادقون مع انفسهم على الاقل من حيث تحديدهم لهوية عدوهم ، وتسخير كل جهودهم في ملاحقة هذا العدو ومطاردته والحق الهزيمة به .

وقد كانت زيارتي للقدس والضفة الغربية وقطاع غزه ، وان بترت عنوة ، كافية لتكوين صورة عن الاوضاع فيها تختلف في جوانب أساسية عن الصورة البهيجة المشرقة التي يعرضها الاسرائيليون والتي تردد صداها في الغرب ، على نطاق واسع، الوفود الزائرة للمناطق المحتلة من بعثات تقصي الحقائق وجماعات السواح والحجاج الذين يتحركون وفق برنامج تعده لهم السلطات وتحت اشرافها ... ان الفلسطينيين في القدس والضفة الغربية يصيبهم الملل والضجر الى حد التقزز والغثيان عندما يقرأون ويسمعون بأنهم قد ركنوا الى الطمأنينة والهدوء قانعين راضين بالعيش تحت الحكم الاسرائيلي . فالسجون الاسرائيلية المكتظة « بالارهابيين » الفلسطينيين ، ومئات المنازل التي يجري نسفها وطرد سكانها ، وآلاف المبعدين الى شرق الاردن ، وآلاف الافدنة من الاراضي العربية المصادرة ، والمستوطنات اليهودية شبه العسكرية التي أقيمت في الاماكن الاستراتيجية من المناطق المحتلة لتقطيع أوصالها ، والاحياء التي تشبه القلاع التي اقامها الاسرائيليون على الاراضي العربية في ما يدعونه « القدس الكبرى » ، والدوريات الاسرائيلية المسلحة المنتقلة الفظة والمنتشرة في كل مكان — كل هذه ومئات غيرها من الشواهد التي يلحظها عابر السبيل تروي حقيقة « قبول » الفلسطينيين « بهدوء » و« رفق » حكم